وقصد الجزء الأكبر من الخوارزميين بلاد سلاجقة الروم، فأقطعهم السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بلاداً لمعيشتهم واستخدمهم(١) على حين أنهزم كثيرون منهم إلى طرابزون – الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود – وبلاد الكرج المجاورة(٢) .

وهكذا تبعثرت بقايا الخوارزميين في عدة أنحاء من الشرق الأدنى الإسلامي، فكان من المتوقع ذوبانهم في إحدى هذه الأنحاء أو كلها، غير أن الظروف السياسية التي أحاقت بالشرق الأدنى الإسلامي آنذاك هيأت لهم الفرصة في الاستمرار كقوة عسكرية مؤثرة تدخلت في أدق الصراعات السياسية والعسكرية حتى توافق لها استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ، فظلَّ في أيدي المسلمين حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

وسأحاول خلال الصفحات التالية أن أستعرض علاقة الخوارزميين بأهم القوى السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ومدى أثر هذه العلاقات على الأوضاع المختلفة في المنطقة .

أولاً : سلاجقة الروم :

ارتقى علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو العرش مكان أخيه السلطان عز الدين الذي توفى في الرابع من شوال سنة ٦١٧هـ، فأرسل إليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت/٦٢٢هـ) منشور السلطنة ونيابة حكومة ممالك الروم، والخلعة السلطانية على يد الشيخ شهاب الدين أبي عبد الله بن

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٣٢٥، ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٢٥ .

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٧٦، وانظر أيضاً : كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص١٦٨ .

محمدالسهروردي[١] ، وكان ذلك تعبيراً عن مدى العلاقة الطيبة بين الخلافة العباسية وملوك سلاجقة الروم، الذين كانوا يكنون الاحترام العميق من الناحية الدينية لخليفة بغداد دون أن يعنى ذلك أى تبعية عملية من الناحية السياسية أو العسكرية.

وفي الحقيقة كان علاء الدين كيقباذ ملكاً حصيفاً ذا أفق بعيد، فلم ير في البداية جدوى في استمرار العداء مع جيرانه الأيوبيين الذين كانوا يسيطرون على الشام وبلاد الجزيرة، وعلى هذا فقد أقدم على الزواج من ابنة الملك العادل الأيوبي (ت/ ٦١٥هـ) ليوثق بذلك الأواصر السياسية بين الطرفين[٢] .

وقد أتاحت هذه العلاقات لعلاء الدين كيقباذ أن يوطد حكمه في الداخل، وأن يدعم سلطانه مع جيرانه في هضبة الأناضول وخارجها ففي الشرق نجح في محاربة الكرج والقبجاق والروس، فامتد نفوذه بذلك إلى سواحل بحر قزوين،وفي الغرب احتفظ بعلاقات متكافئة مع دولة الروم البيزنطيين التي امتدت أملاكها لتشمل الجزء الغربي من هضبة الأناضول في أسيا الصغرى، وفي الجنوب نجح في إخضاع مملكة أرمينية الصغرى لنفوذه وفرض عليها الجزية ، كما استولى على عدد من القلاع الحصينة على ساحل البحر الأبيض ومنها «كلونوروس» التي أطلق عليها اسمه فصارت «العلائية» وكذلك قلعة «آلاره»[٣] وغير ذلك مما أحكم قبضته على الساحل الجنوبي لبلاده على هذا البحر، وفي الشمال وطّد سلطانه على أغلب السواحل الجنوبية

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص١١٦ .

(٢) الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ٥ ص١٣٩ ،ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ٥ ص١٦٢ .

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص١٢٦، العريني : المغول ص ١٨١

للبحر الأسود وبخاصة ميناء سينوب[١] الذي كان قد فتح في أيام أخيه السلطان عز الدين بن كيخسرو.

وعلى الرغم من ذلك كله كان علاء الدين لايرى محاربة المغول لأنهم أصحاب دولة فتية وجيش قوى مدرب، مكنهم من تحقيق انتصارات ساحقة على أعداء متعددين، لذلك استصوب فكرة مهادنتهم، وتقديم الهدايا لهم تسكيناً لثائرتهم وتفادياً لشرهم.

وقد اتضح هذا الرأى في رده على السفارة الثانية التي أرسلها إليه السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي عندما كان جيشه محاصراً لمدينة «أخلاط» التابعة للملك الأشرف الأيوبي فقد قال «أما الآن وقد تحقق أنه (أي السلطان جلال الدين) صرف همته لمحاصرة قبة الإسلام «أخلاط» بتسويل أصحاب الأغراض، وما هم إلا شياطين الانس، فإن الأمر يبدو بعيداً عن الرأى السديد، ونحن وفقاً لحكم الحق تعالى: ﴿وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر﴾ نجهر بالقول بأنه أولى به أن ينثنى عن هذه المدينة، ويقصد ملكاً من ممالك المشركين، وهناك مصلحة أخرى من باب النصيحة التي هي الركن الأهم والباب الأعظم للدين والملك، وهي أن يسلك مع جيش التتار طريق المداراة والمهادنة، وأن يقرع – كلما تمكن من ذلك – باب المصالحة من جانبه وبكل ما في وسعه، وإنه ليجول بخاطري وضميري أن أرسلُ رسلاً إليهم، واعتذر لهم عما بدر من السلطان علاء الدين محمد – أنار الله برهانه – من تعجيل، وذلك لصالح المسلمين أجمعين، كي تنطفئ جمرة الفتنة التي استولت على أطراف الخافقين بلين المقال وبذل المال[٢].

ولم يلق السلطان الخوارزمي لذلك النصح بالاً، وانتهى الأمر الى

---

(١) كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص١٧٥.

(٢) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ١٩٧ – ١٩٨.

استيلائه على مدينة أخلاط ثم نشوب الحرب بينه وبين التحالف السلجوقي الأيوبي، وهزيمته على مقربة من أرزنجان سنة ٦٢٧هـ.(١) ومقتله في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ، وتفرق جيشه في أنحاء شتى، وهروب نوابه بمدينة أخلاط في اتجاه الشرق إلى مدينة أرّان(٢).

وقد فاجأ المغول – بعد أن حلوا مكان السلطان الخوارزمي في الشمال الغربي من إيران – السلطان السلجوقي علاءالدين بتوغل فرقة مغولية من جيشهم سنة ٦٢٩هـ في نواحي «سيواس» فقتلت وأسرت واسترقت الكثير من الخلائق والمواشي، فلم يجد السلطان السلجوقي بداً من إرسال جيش بقيادة الأمير كمال الدين كاميار إلى «سيواس» لمواجهة هذا الحدث فما أن وصلها حتى كانت الفرقة المغولية قد عادت أدراجها، فتبعها الجيش السلجوقي حتى حدود أرزن الروم، ثم توقف بعد أن وصلت الأنباء أن هذه الفرقة المغولية قد اجتازت ممر «يونس» في طريقها إلى مركز التجمع الرئيسي للجيش المغولي في صحراء «موقان»(٣) الواقعة على ساحل بحر قزوين.

ولما كان الأمير كمال الدين كاميار قد أصبح من جراء ذلك في وضع حرج، فإنه قد رأى ألا يعود إلى سلطانه خالي الوفاض، فرأى أن يهاجم مملكة الكرج متذرعاً بأن ملكة الكرج قد أغرت المغول بدخول ممالك السلطان وتمكن الجيش السلجوقي من انتزاع الكثير من القلاع الكرجية الحصينة، مما أدخل الرعب في قلب ملكة الأبخاز المجاورة، فأرسلت إلى الأمير كمال الدين كاميار تطلب عدم الاعتداء على مملكتها أو تخريب أطرافها وتعلن الخضوع للنفوذ السلجوقي وتعرض ابنتها للزواج من السلطان السلجوقي، الذي قبل ذلك العرض وأمر بعدم تعرض عسكره لولاية الأبخاز.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٧٣، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٤٠٣

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ٥ ص١٢٣، أحمد حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص٩١.

(٣) ابن الجيبي: السابق ص٢١٩ – ٢٢٠.

وهكذا تأكدت الاستراتيجية العسكرية لدى سلاجقة الروم والتي لم تكن تختلف كثيراً عما لدى نظرائهم الأيوبيين، وتتمثل في اجتناب الصدام العسكري مع المغول في مقابل الاستحواذ على ممتلكات جديدة على الحدود، وبخاصة في أعالي الفرات، فكان حتمياً أن تؤدى هذه الاستراتيجية المشتركة إلى نشوب الصراع بين الطرفين(١) .

التحرك الخوارزمي الأول (أخلاط - الأناضول) :

ايقن السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباذ أن الملك الأشرف الأيوبي - صاحب الجزيرة - قد استقر بدمشق ، وأنه لايعير اهتماماً لما يحدث بديار الأرمن في الوقت الذي يتابع فيه جيش المغول غاراته دون انقطاع، ويقبض على بقايا الرعية فيأخذهم أسرى، كما كان جانب من الجيش الخوارزمي قد تفرق مشرداً في تلك الأطراف، فأخذ أفراده في قطع الطريق(٢) ، ومن ثمة أرسل السلطان قائده كبير الأمراء كمال الدين كامیار على رأس جيش وأمره أن يعمل على إلحاق ديار الأرمن من « أخلاط » و« بدليس » حتى نواحي « تفليس » بسائر مملكته، فلما بلغ الجيش « أخلاط » حمل بعض أهلها الراية في الحال، واقسموا على الولاء للسلطان السلجوقي وجعلوا الخطبة باسمه(٣) .

وجاءت المشكلة هذه المرة من ناحية الخوارزميين الذين كانوا قد تجمعوا آنذاك في المناطق القريبة من مدينة أخلاط تحت زعامة عدة من الأمراء منهم قيرخان، وبركة خان، وكشلوخان، وصاروخان(٤) .

---

(١) السيد العريني : المغول ص ١٧٩ .

(٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ١٧٥ .

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٤) أبو الفدا : المختصر حـ٣ ص١٥٩، عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٧١ .

وقد أختلفت الآراء حول هذا التجمع الخوارزمي، ما بين عشرة الآف شخص(١) واثنى عشر الف فارس(٢) والتقدير الثاني يعنى أن مجموع الخوارزميين بنسائهم وأولادهم كان يزيد على ضعف هذا العدد تقريباً، ويؤيد ذلك الرأى القول «بأن جمهورهم قد سار إلى بلاد الروم فنزلوا على ملكها علاء الدين كيقباذ»(٣).

وأكدّ على ضخامة هذا العدد وخطورته مدى الاهتمام ا لكبير الذي أظهره نحوهم السلطان السلجوقي علاءالدين، فقد أرسل إليهم قائد جيشه الأمير «سنان الدين قيماز» الذي كان يدرك بخبرته أن ولاية «أخلاط» ليست آمنة من جهة هؤلاءالخوارزميين، ومن ثمة توجه إليهم مسالماً، حتى إن «قيرخان» كبير الخوارزميين آنذاك تملكه العجب من أمرهذا القائد الذي أستأذن في زيارة زوجة «قيرخان» وأبلغها السلام، وواساها ثم عاد إلى قيرخان وطلب طعاماً على سبيل التبسط ثم أخرج مصحفاً شريفاً وأقسم عليه بأن أمراء السلطان لايحملون في قلوبهم أي ضغن لقيرخان وسائر أمراءالخوارزمية، ولن يسيئوا إليهم، وكل ما يعولون عليه أن ينتقلوا من هذا التشرد إلى حالة الأمن والاستقرار ، وليس أدل علي ذلك من أن السلطان علاء الدين قد قال للأمير كمال الدين كاميار أن يدخلكم في دائرة الطاعة، فإن وافقكم هذا الأمر، فإنه يتعين على «قيرخان» وسائر الأمراء أن يقسموا جميعاً بأنهم مع السلطان في السرِّ والعلن» فاجتمع قيرخان والأمراء الخوارزميون بأسرهم وأقسموا على ذلك(٤).

وعند حدود مدينة أخلاط – التابعة آنذاك لسلاجقة الروم – استقبل

---

(١) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٧٦.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٣٢٥.

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٥ ص٣٥٥.

(٤) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٢٤.

كبير الأمراء كمال الدين كاميار الأمراء الخوارزميين وعلى رأسهم قيرخان. وقسَّم – بتوقيعات سلطانية – كل ولايات أرزن الروم عليهم، ووعد بتعزيز كامل لهذا الإجراء عند وصولهم إلى خدمة السلطان السلجوقي في العاصمة (قيصرية)، فارتحل – في اليوم التالي – قيرخان بجملة الأتباع الخوارزميين إلى أرزن الروم[١].

وفي الطريق من أخلاط إلى أرزن الروم وعند منطقة «طوغطاب» أغارت على الخوارزميين – من ناحية موغان – فرقة مغولية، فقتل عدد كبير منهم وتشرد الباقون في الوديان فرادى وجماعات، فانطلق المغول عقب ذلك إلى مدينة أخلاط فحاصروها – وكانت آنذاك تحت السيطرة السلجوقية – وفي الفجر – كعادة المغول عند الانسحاب – ارتحلوا تاركين نيران معسكرهم مشتعلة[٢] وقد أسفر هذا الأمر عن نتائج مهمة منها :

١– تمكن رعب المغول من قلوب الخوارزمية عقب تلك المباغتة حتى إنهم قرروا ألا يدخلوا بعد ذلك في مواجهة عسكرية معهم[٣].

٢– انسحاب الحامية السلجوقية من مدينة أخلاط مؤقتاً خوفاً من التعرض للحصار المفاجئ بداخلها من قبل المغول الذين انهمكوا في تثبيت سلطانهم على الشمال الغربي من إيران.

٣– اتخاذ مدينة أرزن الروم مركزاً لتجمع كافة الخوارزميين في الأناضول تمهيداً لنقلهم إلى العاصمة السلجوقية قيصرية حيث كان السلطان علاء الدين كيقباذ في انتظارهم لتطييب خواطرهم وزيادة الاطمئنان في نفوسهم.

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٢٧، يذكر الدكتور السيد الباز العريني في كتابه المغول ص ١٧٧، إن السلطان علاءالدين كيقباذ كان يأمل في استخدام الخوارزمية أن يكونوا حماية لحدوده مع أرمينيا من خطر المغول.

(٢) ابن البيبي : سلاجقة الروم ص٢٢٧ – ٢٢٨.

(٣) عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص٤٠٦.

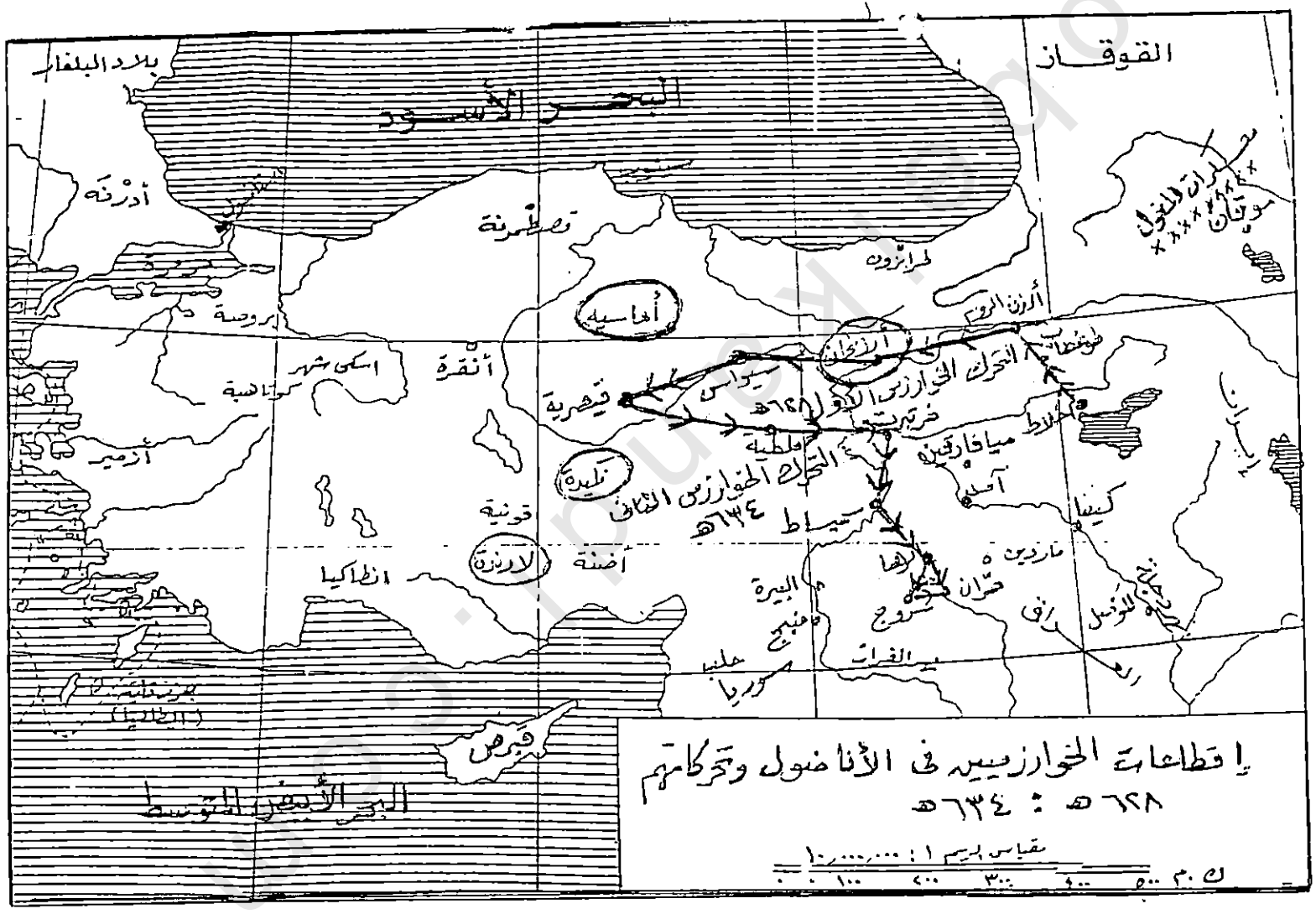
القوقاز
بلاد البلغار
البحر الأسود
أدرنه
قسطمونة
طرابزون
أرزن الروم
أهاسيه
أرزنجان
بروصة
أنقرة
اسكي شهر
قيصرية
سيواس
خرتبرت
ملطية
ميافارقين
آمد
كيفا
نصيبين
حران
الرها
البيرة
منبج
سروج
الفرات
حلب
أضنة
لاذقية
انطاكيا
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
الحرك الخوارزمي الأول ٦٢٨هـ
الحرك الخوارزمي الثاني ٦٣٤هـ
إقطاعات الخوارزميه في الأناضول وتحركاتهم
٦٢٨هـ : ٦٣٤هـ
مقياس الرسم ١ : ١٠٠٠٠٠٠
كم ٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠

obeikandl.com

وقد رأى السلطان السلجوقي أن يوزع بعض الإقطاعات المتفرقة على كبار أمراء الخوارزميين، فجاء التوزيع على النمط التالي :

- قيرخان ارزنجان – شمالي الأناضول .
- بركة خان آماسيه – شمال الأناضول .
- كشلو خان لارندة – جنوبي الأناضول.
- يلان نوغو بكيدة(١) – جنوبي الأناضول.

ولايعنى هذا التقسيم الجغرافي أن الخوارزميين قد وزعوا على هذه الإقطاعات . ليعيشوا فيها متفرقين عن بعضهم، فقد كانت استراتيجية السلطان السلجوقي تتمثل في إحكام قبضته عليهم جميعاً في مكان واحد من جهة، ووقاية الممتلكات السلجوقية من خطرهم من جهة ثانية، وتسخير قوتهم العسكرية في خدمة أغراض التوسع السلجوقي على حساب جيرانه في الجنوب وبخاصة الأيوبيون من جهة ثالثة .

وأدى تكرار استيلاء الجيش السلجوقي المدعم بالقوات الخوارزمية على مدينة أخلاط إلى إثارة حفيظة الأيوبيين الذين تحركوا تحت قيادة السلطان الكامل سنة ٦٣١هـ لمهاجمة حدود السلاجقة في جنوبي الأناضول(٢) .

وفي المقابل وجّه السلطان السلجوقي علاءالدين كيقباذ إلى هذا التجمع الأيوبي الضخم جيشاً كبيراً أوفي على المائة الف – حسب رواية ابن العبرى – اجتمع فيه الخورزميون والفرنج واليونان والأرمن والكرج(٣) .

أما المؤرخ ابن البيبي فيقصر الجيش السلجوقي على الروم والخوارزميين

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٢٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٥٤، المقريزي : السلوك جـ١ ق١ ص٢٤٧ .

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٠ .

فقط فيقول : « وصل السلطان (يعنى علاء الدين كيقباذ) بعساكر وفيرة وبصحبته أمراء الروم وخوارزم، ومالا حصر له من العتاد والعدة، وكان الخوارزمية والروم يخرجون من الممرات ويشتبكون في القتال مع رجال الشام فيقتلون ويجرحون الكثيرين منهم دون أن يلحق بهم أذى من قبل جيش الشام(١) .

وانتهت المعركة بهزيمة الجيش الأيوبي، ووقوع الملك المظفر الأيوبي صاحب حماة في الأسر، كما وقع غيره من كبار الأمراء وعلى رأسهم الطواشس صواب فحملوا إلى السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم ، فخلع عليهم وأحسن إليهم، وأطلقهم، وعاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية وقد حصلت الوحشة بينه وبين أخيه الملك الأشرف، والملك المجاهد صاحب حمص، وجميع الملوك الذين كاتبوا سلطان الروم، ولذلك فإنه في طريق عودته إلى مصر اعتقل الملك المسعود صاحب آمد بحكم أنه من جملة من كاتب سلطان الروم(٢) .

وفي سنة ٦٣٢هـ خرجت عساكر سلاحقة الروم نحو آمد، فأقاموا عليها ثم نازلوا مدينة السويداء ا لقريبة من حران فأخذوها، وأخذوا أيضاً بعض القلاع في حرّان والرها(٣) أما الخوارزميون وعلى رأسهم « قيرخان » وسائر أمراءخوارزم فإنهم انطلاقاً من الحقد الذي ملأ قلوبهم من جهة الملك شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين، والملك المنصور صاحب ماردين، والملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ، لكونهم لم يلتفوا إلى السلطان جلال الدين عندما لجأ إليهم، فقد عمدوا إلى الإغارة على تلك البلاد فأشاعوا الخراب حتى أبواب

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٣٠ – ٢٣١ .

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص١٩ ، المقريزي : السلوك جـ١ ق١ ص٢٤٨ .

(٣) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣١٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٨٧ ، ابن سباط : صدق الأخبار جـ١ ص٣٠٧ .

سنجار حيث أعملوا فيها القتل والسبي والحرق والنهب(١) .

ويظهر أن صاحب ماردين قد رأى تحت الضغط الخوارزمي أن يعلن ولاءه للسلطان السلجوقي، وكان ذلك يعنى من وجهة نظر الأيوبيين إعلان الحرب ضدهم، ومن ثمة فقد أعاد السلطان الكامل في سنة ٦٣٣هـ يصحبه أخوه الأشرف الكرة على بلاد الجزيرة لاسترجاع ما اغتصبه السلطان السلجوقي علاءالدين كيقباذ الذي انسحبت قواته بما فيهم الخوارزميين من الجزيرة(٢) فتمكن الملك الكامل من استعادة الرها وحرّان من نواب السلطان السلجوقي بعد حصار طويل وقتال شديد، ثم خرّب الكامل قلعة الرها وقبض على جميع من فيها وفي حرّان من بلاد الروم وقيدهم وسيّرهم إلى الديار المصرية في جوالق على الجمال فمات أكثرهم من كثرة الشدائد التي نالتهم في الطرقات وكانوا أزيد من ثلاثة آلاف نفس(٣) .

وانطلقت القوات الأيوبية نحو ماردين لمعاقبة صاحبها على تحالفه مع سلاجقة الروم ، وتعرضت مدينة دُنَيسر الواقعة جنوبي ماردين للتخريب والنهب والقتل فلم يسلم من ذلك سوى الجامع(٤) فلما ورد كتاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى الملك الأشرف بأن المغول قد قطعوا نهر دجلة في مائة طلب، كل طلب خمسمائة فارس ووصلوا إلى سنجار، بادرت القوات الأيوبية بقطع نهر الفرات عائدة إلى دمشق، ورجع المغول أيضاً عائدين فعبروا الفرات(٥) .

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

(٢) سبط ابن الجوزي :مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٩٥، عماد خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٠ .

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٩، أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص١٥٨، ابن العبري: تاريخ الزمان ص٢٨٢ .

(٤) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٢٠١، عماد خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٠ .

(٥) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر جـ٧ ص٣١٦، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٩٣ .

وفي نفس السنة ورد على السلطان السلجوقي علاءالدين كيقباذ أمر ملكي عن الخاقان الأعظم المغولي أوكتاي كان نصه « يعلم العاهل العادل السلطان علاء الدين أننا قد انتهجنا منهجاً حسناً في الحكم وسياسة الرعية، والقادمون والذاهبون عنك راضون، ولقد سمعنا ورضينا كل الرضا، وأرسلنا إليك ما يعبر عن رضانا ومودتنا، وأردنا أن تبقى على الدوام سعيد القلب في ملكك، ولما كان الله تعالى قد جعلنا عظماء وأعزنا ووهب سطح الأرض لقبيلتنا، ولما كنت أنت تسلك الطريق المرضى، فقد أصبح واجباً علينا إظهار حالنا لك، واطلاعك عن طريق الرسل والمؤتمرين بالأمر، ونحن إذا أظهرنا أحوالنا، ولم يُسمع لنا كان جزاء من لايسمعون أو يلوون رؤوسهم أن يقتحم جيشنا ولايتهم، فيقتلهم ويأسر النساء والأطفال، ويغير على الأموال، ويخرب المتاع، وينزل به الضرر والسوء، ولانكون نحن السبب في ذلك، كتب في سنة بيجين سنة ٦٣٣هـ من مقام بلاط سبزه(١) .

ولم يجد السلطان السلجوقي المسلم حرجاً في إعلاء الولاءللمغول الوثنيين، وأمر بإعداد التحف والهدايا والطرائف الرومية وإرسالها إلى بلاط الخاقان المغولي أوكتاي قاآن، فأصبحت بلاد الجزيرة بذلك – بعد أن تراجع المغول عنها شرقاً وعاد الأيوبيون عنها غرباً – ساحة مفتوحة أمام الجيش السلجوقي المدعم بقوات خوارزمية.

وقد بادر هؤلاء الخوارزميون بالتوجه إلى حليف سلاجقة الروم الملك المنصور صاحب ماردين، فنزل إليهم واشترك معهم في أعمال النهب والتخريب التي امتدت إلى مدينة نصيبين التي فعلوا فيها أعظم مما فعله الأيوبيون بمدينة دنيسر(٢) .

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٤٢ – ٢٤٣، ابن العبري : تاريخ الزمان ص٢٧٩، وهو يذكر هذا الحدث في سنة ٦٣٠هـ وروايته ابن البيبي أدق للمعاصرة ووحدة الموضوع

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٦٩٥، عماد الدين حنبل . إمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٩٠

كذلك اشترك الخوارزميون في محاصرة مدينة آمد سنة ٦٣٤هـ(١) وكان في نفوسهم الكثير من الحقد تجاه أهلها الذين كان - أغلقوا أسوارها في وجه السلطان الخوارزمي الراحل جلال الدين منكبرتي وقذفوه بالحجارة حين توجه إليهم لاجئاً من المغول الذين كانوا يطاردونه سنة ٦٢٨هـ، غير أن الشتاءالقارس في سنة ٦٣٤هـ قد حتم عودة الجيش السلجوقي والخوارزميين عنها إلى حين آخر(٢).

وفاة السلطان علاء الدين

كان علاء الدين كيقباذ قد رأى أن يجمع الجند في سنة ٦٣٤هـ في عاصمته قيصرية استعداداً لغزو بلاد الشام، وأدخل عقب ذلك تعديلات جذرية في المناصب المهمة للدولة، فجعل ولاية عهده إلى ابنه الملك عز الدين قلج أرسلان كما فوض إلى قيرخان كبير أمراء الخوارزمية أمر العناية بسيواس(٣).

ويظهر أن تكليف الخوارزمية بهذا الأمر كان يقصد به إبعادهم عن المشاركة في غزو الشام، فلم تكن سيواس واحدة من الإقطاعات الأربعة التي سبق أن أنعم السلطان السلجوقي بها على الخوارزمية، كما أن موقعها الجغرافي في شمالي هضبة الأناضول يجعلها بمنأى عن الطرق الجنوبية المؤدية إلى شمالي الشام.

ولم يمهل القدر السلطان علاء الدين كيقباذ طويلاً، فقد توفي فجأة في السابع من شوال سنة ٦٣٤هـ(٤)، فبادر ابنه غياث الدين كيخسرو إلى تسيير الدعاة إلى أكابر الأمراء في الدولة، يدعوهم إلى موالاته ومناصرته في

---

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٢٨٢.

(٢) ابن البيبي أخبار سلاجقة الروم ص٢٤٠.

(٣) ابن البيبي: المصدر السابق ص٢٤٥.

(٤) الذهبي: العبر جـ٥ ص١٣٩، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ٥ ص١٦٨.

الوصول إلى العرش بدلاً من ولي العهد عز الدين قلج أرسلان، فوجد استجابة سريعة من معظمهم(١).

وتشكلت جبهة معارضة تكونت من كبير الأمراء كمال الدين كاميار، وقيرخان رئيس الخوارزمية، والأمير حسام الدين قيمري الذي أخذ يقول «إن الملك عز الدين موجود في (كيقبادية)، ولابد لنا من الحفاظ على عهدنا مع السلطان السابق، وذلك بأن نجلس عز الدين على العرش، ومن عارضنا أحللنا دمه، الجيش معنا، وولاية العهد بأيدينا، وإذا عارضنا مؤيدو غياث الدين حطمناهم، فوافق قيرخان رئيس الخوارزمية على هذا الأمر بينما توقف فيه كبير الأمراء كمال الدين كاميار، والتمس لنفسه حججاً وتعلات، وأخيراً وبعد صلاة العشاء رأى الأمراءالثلاثة أنه لاجدوى من المماطلة والمضايقة، فدخلوا المدينة وهنأوا السلطان غياث الدين كيخسرو بالسلطنة، وحلفوا له يمين الولاء(٢).

وبالطبع أدى هذا التلكوء في إعلان الولاء من قبل رئيس الخوارزمية إلى اعتمال بواعث الشك في نفس السلطان السلجوقي الجديد وبالتالي استجاب لوشاية أحد كبار الأمراء ويدعى سعد الدين كوبك حين ألصق تهمة باطلة بقيرخان فزعم للسلطان السلجوقي بأنه سيضرب صفحاً عن الولاء له، وسيغرى به الأعداء إذا ذهب عن هذه المملكة إلى مكان آخر، حيث إنه قد وقف على ما للملك السلجوقي والجيش من دخائل والرأي أن يقيد لكي يلزم الأخرون جادة الإخلاص رعباً ورهباً، ولايفكرون في مفارقة هذه الحضرة، فأمر السلطان باحضاره فحبسوه في مسجد قصر السلطنة، وحملوه بالليل مقيداً إلى قلعة «زمندو» فابتلى هناك بمرض وتوفى(٣).

---

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٤٨.

(٢) ابن البيبي :المصدر السابق ص٢٤٩.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص٢٣٢، ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٥٠.

التحرك الخوارزمي الثاني (الأناضول - الجزيرة)

لما سمع الأمراء الآخرون من الخوارزمية بذلك الأمر لاذوا جميعاً بالفرار، فعمَّ التزلزل وفشى الاضطراب في البلاد، وتعرضت الولاية بأسرها للنهب والغارة، فقد انطلق الخوارزميون في اتجاه الشرق إلى ملطية ثم عبروا الفرات إلى خرتبرت (حصن زياد)(١) فاعترضهم شمس الدين بيرم صاحب الحصن والأمير سيف الدولة ارتقش قائد جند ملطية مع عسكر من الروم فأرسل الخوارزميون إليهم برسالة مضمونها «قد انتقلنا من التشرد إلى الهناء والدعة في ظل السلطان السابق، فلما انتقل إلى جوار ربه ألقيتم بقائدنا «قيرخان» في السجن دون جرم جناه، فتركنا خدمة هذه الأسرة الملكية خوفاً على أرواحنا، وانطلقنا نجوس خلال الديار طلباً للرزق، والمصلحة أن تعودوا أدراجكم وألا تلجئونا إلى الإعراض عن رعاية حقوق النعمة وأكل الخبز

= ويروي المؤرخ ابن واصل (ت٦٩٧هـ) في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب جـ٥ ص١٣٥ أن الذي قُبِضَ عليه هو بركة خان الذي كان أكبر مقدمي الخوارزمية ثم أنه قد خلص فيما بعد من يد غياث الدين كيخسرو ملك الروم. وقد نقل عنه هذا الرأي المؤرخ أبو الفداء (ت٧٣٢هـ) في كتابه المختصر في أخبار بني البشر جـ٣ ص١٥٩، كما نقله أيضاً المؤرخ ابن الوردي (ت٧٤٩هـ) في كتابه تتمة المختصر في أخبار بني البشر جـ٢ ص٢٣٧، ونقدت هذا الرأي أيضاً الدكتورة عفاف صبره في كتابها التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٧٢، ويخالف هذا ما أوردته في المتن منقولاً عن ابن العديم (ت٦٦٦هـ) في كتابه زبدة الحلب في تاريخ حلب جـ٣ ص٢٣٢، والذي يؤكد فيه أن القبض قد تَمَّ على قيرخان وأنه توفي في السجن، وكذلك عن ابن البيبي (ت٦٨٤هـ) في كتابه أخبار سلاجقة الروم ص ٢٥٠، وروايتهما أدق وأصح فابن العديم قد أوفد في السفارة من حلب إلى قيصرية في أيام السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو وابن البيبي أسبق زمناً ومعاصرة من ابن واصل وأبي الفداء وابن الوردي، فقد كانت أمة منجمة للسلطان علاءالدين كيقباذ، وكان أبوه مجد الدين محمد الترجمان رئيس ديوان الإنشاء الخاص بيدا السلطان.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب جـ٣ ص٢٣٢، ابن العبري: تاريخ الزمان ص٢٨٣، العريني: المغول ص ١٨٢.

والملح[١] غير أن جند الروم لم يعبأوا بهذه النصائح لفرط ما بهم من غرور وعجب، واصطفوا في مواجهتهم للقتال فقتل شمس الدين بيرم صاحب خرتبرت وأسر سيف الدولة ارتقش، واستولى الخوارزميون على الكثير من الخيول والأمتعة من تلك المعركة[٢].

ثم انحدر الخوارزميون جنوباً فأغاروا على بلد سُمَيْساط – الواقعة غربي الفرات التي يقول عنها ياقوت الحموي، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن[٣]– فغزوه، ثم واصلوا الانحدار جنوباً إلى داخل بلاد الجزيرة فاستولوا على مناطق قريبة من حرّان والرها والرقة وسروج وغيرها من المواضع[٤].

وأسفر هذا الوضع الجديد للخوارزميين في بلاد الجزيرة عن نتائج خطيرة فقد أضحى ملوك الشام وديار بكر وربيعة ومضر وباقي الجزيرة خائفين محترزين خشية ما يصدر عن هؤلاء الخوارزميين من إغارات ومفاجآت، واضطروا اتقاءً لذلك إلى إرسال الأتاوات من كل صوب إلى قوادهم الذين بذلوا لهم نظير ذلك العهود والمواثيق بعدم الاعتداء، غير أنهم كانوا يتوغلون في بعض الأوقات داخل الحدود، ويحولون دون تردد القوافل جيئة وذهاباً[٥].

ويعكس هذا الموقف الخطير مدى الضرر الاقتصادي الذي أصاب هذه المنطقة من جراءنزول الخوارزميين فيها، ففقدان حالة الأمن والاستقرار يؤثر حتماً على استمرار عمليات الزراعة والحصاد، ويشل حركة الرعي، كما أن تهديد القوافل التجارية يؤدى بدوره إلى توقفها أو تحولها إلى طرق أخرى

---

(١) ابن العيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٥١.

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٣، ويحدد كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٩، مكان خرتبرت على الضفة الجنوبية لنهر الفرات الأعلى.

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٣، وانظر ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٣ ص٢٥٨

(٤) ابن العيبي : أخبار سلاجقة الروم ص٢٥١.

(٥) ابن العيبي : السابق ص٢٦١.

بعيدة وآمنة، فيترتب على ذلك الركود الاقتصادي مدي يستمل في قلة المعروض من السلع وبخاصة الغذائية منها، وارتفاع الأسعار وتفاقم الغلاء، فيعجز الأهالي عن تصريف شئون حياتهم.

وقد حاول السلطان السلجوقي الجديد غياث الدين كيخسرو معالجة هذا الأمر فأرسل إلى الخوارزميين «مجد الدين الترجمان» الذي كان قد نال الحظوة عندهم منذ أيام سلطانهم الراحل جلال الدين منكبرتي (ت/٦٢٨هـ) فدعاهم إلى العودة إلى بلاد الروم على سبيل استمالتهم وإنالتهم المقصود، فلزموا حسن الاستماع ولبسوا خلع السلطان وفي اليوم التالي – بعد الاجتماع – استدعوا الرسول وقالوا له: «قد تفرقنا بسبب وقعة «قيرخان» وفي الطريق أُرغمنا على الاشتباك مع الأمراء الذين كانوا قد جاءوا لاسترادنا، فانزلنا بهم هزيمة نكراء، ولازلنا إلى الآن نخوض في تيه تلك العثرة، فكيف يتسنى لنا أن نضع أقدامنا على بساط تلك الحضرة برغم كل ما صدر عنا من تجاوزات، لكننا نعدُّ هذه البلاد التي ابتلعناها من جملة ممالك السلطان، فنتولى تصريف أمورها إذا ما أنعم السلطان علينا بها بمنشور سلطاني باعتبارها إقطاعاً، ويكون له علينا أن نجعل أرواحنا فداء له في مواجهة كل عدو يعهد به إلينا، كما نجعل الخطبة والسكة باسم السلطان، ولن نسمح بالقطع (تعرض ممالك السلطان لأي اعتداء من جانب عسكر الخوارزميين)، فقرَّ القرار على هذا كله، وبادروا بتغيير الخطبة والسكة، وقد راق ذلك الرأى للسلطان[١] السلجوقي الذي كان في حاجة إلى تثبيت سلطانه داخل بلاده، كما كان بحاجة أيضاً إلى تدعيم علاقاته بالقوى السياسية المجاورة وبخاصة المغول والأيوبيون في الجزيرة والشام.

---

(١) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص٢٦٣.